

مجلة الكنوز



إصدار قسم اللغة العربية
كلية اللغة والدراسات الاتصالية
جامعة إبراهيم بدماصي بانبغدا،
ص.ب. ١١، لبي، ولاية نيجرا، نيجيريا.

٢٠٢١/٥/٢٠ م

العدد الخامس



الشيخ أحمد الرفاعي (أبكن) في منظور الشعراء

الدكتور لطيف أونيريتي إبراهيم

قسم اللغة العربية، كلية الآداب

جامعة إلورن، إلورن

onireti@unilorin.edu.ng

08065962826

مقدمة

هناك أشخاص فذة تثير شخصيتهم عواطف الأدباء لجلال الأعمال التي قاموا بها في نشر دين الله، وفي تربية جيل الغد وعماد المستقبل، وفي اخراج بني البشر من الجهل والجهالة إلى نور العلم والحضارة، ولأقوالهم المفعمة حكما وهداية، فتدفع هذه الإثارة الأدباء إلى إبداع الأعمال الرائعة، فالشيخ أحمد الرفاعي أبىكن من هؤلاء الشخصيات الفذة اللذين جعلهم الشعراء العربيين موضوع أغاريدهم. ولكننا لم نجد من الدارسين من تفرغ لدراسة وجهات النظر الشعراء عن شخصية هذا العلم.

يهدف هذا البحث إذن إلى دراسة أفكار الشعراء حول شخصية الشيخ أحمد الرفاعي أبىكن دراسة تحليلية. ولتحقيق ذلك نستخدم المنهج التاريخي والمنهج التحليلي فتقسم البحث إلى أربعة أقسام، يكون القسم الأول مقدمة، ويذكر القسم الثاني نبذة عن حياة الشيخ الرفاعي، ويناقش القسم الثالث منظور الشعراء في الشيخ، وتأتي الخاتمة التي تحتوي على خلاصة البحث ونتائجه وتوصياته في القسم الرابع الأخير.

نبذة عن حياة الشيخ أحمد الرفاعي أبىكن

ولد الشيخ الرفاعي عام ١٩١٨م بإي أليمشو، أدبتا، إلورن. توفي والده بعد أسبوعين من ولادته، فتولى جده من جهة أمه، الشيخ محمد جامع، كفالته إلى أن توفي. وانتقلت رعايته إلى أمه بلفيس حتى بلغ^١ تعلم قراءة القرآن وكتابته لدى الشيخ محمد الأمين كورو، إيسالي ألوكو، إلورن. وأتقن القراءة والكتابة وهو ابن سبع سنين. ثم التحق بمدرسة الشيخ يحيى، شيخ الشيوخ حارة ألوكو حينذاك حيث تعلم كتب الشريعة على المستوى الإبتدائي، ثم التحق بمدرسة الشيخ حمزة صاحب مسجد غوغورو، مكث عنده لمدة خمسة عشر سنة، تعلم منه العلوم الشرعية ونبع خاصة في علم الميراث والأحاديث النبوية^٢.

كان الشيخ الرفاعي داعياً، يتجول بلدان يوربا للوعظ والإرشاد، مثل أساوكوتا وإجيبو وأوبو وشاكي وأوبورو وأبوماشو وسأو وغيرها. فقد أسلم إثر دعوته عدد من الكفار والمسيحيين كما حدث في أشومن وسأو بولاية كوارا.^٣ وجلب له ذلك التلاميذ من هذه المدن، وكان مستجاب الدعاء ويساعد ذلك دعوته واكتسابه حب الناس.

بجانب الوعظ والإرشاد كان الشيخ الرفاعي يزاوّل حرفة نسج الثياب اليدوي منذ أيام تعلمه، ويحمل المنسوجات لعرضها في الأسواق في مدينته وفي مدن اليوربا خصوصاً إبادن، وأخيراً استقل من هذا العمل للتفرغ للدعوة والتدريس.^٤

للشيخ الرفاعي مدرستان، المدرسة التقليدية والمدرسة النظامية. كانت المدرسة التقليدية في دهليز بيته ويعلم الطلبة بالأسلوب التقليدي، يعلم التلاميذ الدرس على الألواح ثم في الكتب، كل تلميذ يأتيه على دوره لتلقي الدرس. يترقى التلميذ من تعلم الهجائية إلى قراءة القرآن ثم تعلم الفقه والقواعد العربية والحديث والنصوص الأدبية والتجويد والتوحيد والتفسير بدون تحديد الحصص الدراسية وسنّ الدراسة. وتخرج على هذا النظام عدد من التلاميذ والطلبة من مختلف مدن يوربا. وفي عام ١٩٦٤م أسس الشيخ الرفاعي مدرسة نظامية يديرها جنباً بجانب مع المدرسة التقليدية يستعين ببعض طلابه للتدريس فيها. ثم توفد بعض طلابه إلى المدارس النظامية مثل مدرسة شمس الدين، ومدرسة دارالعلوم لجهة الأئمة والعلماء بمدينة إلورن، ومركز التعليم العربي الإسلامي بأغيغي، ليغوس، أمثال إسحاق محمد سافورا وزكريا جمعة أوكنلا، المحاضر بجامعة ميدوغوري حالياً، ويونس محمد جامع أتيري، الإمام لجامع أبولي أونغن بليغوس، وعلي محمد جامع، المحاضر بجامعة إبراهيم بدماصي ببغدا، لابي، ولاية نيجر، وغيرهم، وأبناء الشيخ الثلاثة يعقوب أحمد وصالح أحمد وأدم أحمد، الذين تولّوا إدارة المدرسة اليوم.^٥

إضافة إلى الوعظ والإرشاد والتدريس كان للشيخ بعض أعمال أدبية في اللغة العربية ولغة يوربا كما سجل لنا علي محمد جامع في كتابه "الشيخ أحمد الرفاعي: حياته وإسهاماته في نشر الثقافة العربية والإسلامية في نيجيريا". وتتلخص هذه الأعمال في شعر يوربا وعدد من قصائد عربية ورسائل وخطب، ومن قصائده ما نظمه عام ١٩٤٥م وهي في سبعة أبيات:

فلاح فلاح فلاح فلاح ** فلاح الإله سليم مصيرا
أيا قوم جدّوا ولا تكسلوا ** وذو العرش يجزيكم يوم ما
وقوموا بالدين وأمنو برّبي ** ولا تقربوا ما نهى ربنا
ولا تفسدوا واصلحوا بينكم ** لقد فاز مصلح في ديننا
وتوبوا إلى الله يا قومنا ** وكان الإله غفوراً رحيماً
قد أفلح من زكى نفسه ** وخلص الدين ودع الهوى
الظلم لظلمة يوم الحساب ** وكن تائباً خائفا عادلاً^٦

كان الشيخ الرفاعي زاهداً صوفياً تيجانياً له زاوية ومريدين. وهو إمام لمسجد كوكوروكن بإسالي ألوكو إلورن منذ عام ١٩٥٥م. توفي الشيخ عام ١٩١٢م^٧ وخلفه من الأبناء ثلاثة وهم: يعقوب الإمام ببيت إيلماشو وصالح، شيخ رواق مدرسة السعداء وآدم، مدير المدرسة.
الشيخ الرفاعي في منظور الشعراء

بيدوا فيما عثرنا عليه من الأشعار التي قيلت في شخصية الشيخ الرفاعي أن العواطف التي دفعت الشعراء إلى قول الشعر فيها تتلخص في الحزن والحب والإعجاب لذلك كانت أغراض شعرهم مركزة على الرثاء والمدح والفخر. وتشتمل أفكارهم على ما يلي:
الشيخ الرفاعي ذو الأخلاق النبيلة

رى الشعراء أن الشيخ الرفاعي أخلاقه مهذّبة ونبيلة لذلك كانت ولادته كرامة وبركة لأسرة
يكن فعلية يقول يوسف عثمان عبد السلام في قصيدته اللامية التي رثى بها الشيخ يقول:

أرى سيرة من سيرة الشيخ أحمد ال ** رفاعي أبيكن ضوءها كالسلاسل
ولادته كالبحر زادت كرامة ** لدار أبيكن بل لأصل الفضائل
دعولي إلى تذكير عيشة راضية ** حرام على الإنسان أكل البواطل
لأحمد شيعي عفة وتواضع ** له المجد والإكرام زين المحافل
لقد زال به الله المعز بخلقه ** يروق خيار الناس من غير باطل
بداوي قلوب ذا سقام وقسوة ** يفيد كراماً دائماً بدلائل
وبأمر بالإصلاح في الصبح والدحى ** وينهى عن الفحشاء ليس بكامل^٨

يرى الشاعر أن في شخصية الشيخ الرفاعي وحياته عبرة واضحة يصح الاقتداء به، وأن الله شرفه بالفضائل من الأخلاق، هو مثال في الورع والعفة والنواضع وأنه مربي الروح ومهذب الأخلاق والهادي إلى سواء السبيل وأنه دائماً يقوم بإصلاح ذات البين وهوناه عن الفخشاء وليجعل عاطفته الإعجابه متأثراً أستعان بصور البلاغية رائعة، حيث جعل السيرة شبيهاً له ضوء ارتبط ببعضه ببعض وصور الولادة كالإبشر له كرامة وجعل الشيخ طبيباً يشفي المرضى ولكن من أدران القلب، وختم بقوله:

رفاعي أبيكن كان بالله واثقاً** وعاش حياة الأولياء الفطاحل

يرى الشاعر أنه ولي من أولياء الذين فنوا في الله وعبادته.

ولخص إبراهيم الإمام الأغني أن خلقه القرآن وذلك في قوله:

أعلى الدليل بشأنك القرآن** ثم العناية بسنة الأخيار

يا منهـل الأوراد والأذكار** من درة القرآن والآثار

يري أن الشيخ الرفاعي متمسك بالقرآن وسنة رسول الله وكلام العلماء الصالحين، وأضاف عيسى إبراهيم أوملابي أن الشيخ الرفاعي لم يتخلق بأخلاق القرآن والسنة فحسب بل أرشد الناس إلى الصراط المستقيم بهديهما حين يقول:

كم قرية ومدائن أحيتها** بكتابتنا وبسنة العدنان

استخدم القرية والمدائن مجازاً لأهلها التمام التأثير. وكذلك رأى ذكر الله إبراهيم السابووي أن الشيخ من الذين لا يريدون علواً في الأرض ولا فساداً بل يمشي على الأرض هونا ولا يغفل بعلومه وليس في قلبه غلّ للناس وليس بمنافق لا يكذب ولا يخون، في ذلك يقول:

تراد على الثرى يمشي ليانا** وما بعلومه حكراً ضنيناً

ولا في طبعه خيل وضغن** وما هو في الورى مثراً خثونا

الشيخ الرفاعي في موكب الخالدين

يري الشعراء أن الشيخ الرفاعي كان في موكب الخالدين الذين لا ينساهم الدهر أبداً لأن الناس ينتفعون بعلومهم حتى بعد مغادرتهم الدنيا، أوبأياديهم التي تجري صدقاتها أو أعمالهم الجليلة التي يستفيد منها القاصي والداني فهذا ما يعبر عنه عبد الله أحمد يعقوب في همزته عنوانها "ذكراك ولي الأولياء" وذلك بعد عام من وفاة الشيخ الرفاعي، يقول:

ذكرى ولي الأولياء الأتقيا ** شيخ أبيكن رائد السعداء
 ذكراك يا بابا أبيكن أحمد ** دين على أسرة زمرة السعداء
 ذكرى أمير العلم والعلماء ** بعد الممات فريضة الأحياء
 لاسيما إن كان شيخا عابدا ** يحوي الآلي بالهدى الغراء
 يحي البلاد بعلمه وخصاله ** حتى بنى للدين دار صفاء
 شمس ينير الأنام بفعله ** بدريضي غياهب الظلماء
 وهو الشفاء لكل داء حمية ** غيث إذا ما العلم في الصحراء
 إن العباد بدونه في حيرة ** وهو الأمان وملجأ السعداء^{١٢}

في نظر الشاعر، يبقى الشيخ الرفاعي في ذاكرة التاريخ وفي قلوب تلاميذه لأنه هو مؤسس جماعة زمرة السعداء الشهيرة في إلورن والتي تفرع في أرجاء نيجيريا، وللعلم الذي غرسه في تلاميذه حتى أصبحوا علماء وأئمة المساجد وخطباء المنابر ووعاظ الجماهير ومرشدي المنظمات والجمعيات، ولكونه شيخ الطريقة الذي هذب النفوس وطهر القلوب، ولتأسيسه مركز زمرة السعداء الذي يخرج طلاب العلم كل عام. شبه الشيخ بالشمس و البدر اللذين يتجددان ويبقيان ما دامت السموات والأرض. وبالأدوية التي يحتاج إليها الناس كل وقت وحين للشفاء، وبالمطر الذي يعيد الأمل للظمآن في الصحراء.

الشيخ الرفاعي مفخرة القوم

إذا اختلط عاطفة الحب بعاطفة الإعجاب لدى شاعر يتعادى إلى الحماسة، والحماسة تنتج فخرا أحيانا، فقد رأينا مصداق ذلك في رثاء بعض الشعراء للشيخ الرفاعي إلى حد أن الناقد إذا لم ينظر من زوايا هؤلاء الشعراء يرمي أعمالهم في زباله المبالغة. لنمعن النظر فيما قاله عبد الله أحمد في قصيدته النونية نظمها - كما قال - تبركا بشيخه الرفاعي:

أهلا بنورك يا أحمد قدوتنا ** شيخ الشيوخ إمام شيخ أبيكن
 كل الشيوخ نجوم أنت شمشهم ** قد أخضعوا لك طوعا شيخ أبيكن
 لست بشيخ (ألوكو) وحدها صدقا ** شيخ الأئمة طرا شيخ أبيكن
 يعلوبك الدين دوما يا أبا السعداء ** بك الشريعة طابت شيخ أبيكن
 شيخ الرفاعي لقد أعطاك ربك ما ** لم يعط غيرك زهدا شيخ أبيكن

أبنائكم قادة الإسلام والعلماء ** وأنت أصلهم الأعلى بابا أبيكن
من بحركم يشرب الأيتام والضعفا ** ويرتوى الأغنياء من بيت أبيكن
عمت أياديكم البلدان والدول ** أفاد كلهم تفوى بابا أبيكن^{١٣}

فتسمية الشيخ الرفاعي بشيخ الشيوخ لفخر، ولم يترقي هذا الفخر إلى حد المبالغة لأنه لم يؤكد ذلك بمثل "قاطبة" أو "بغير منازع" أو "جميعهم" أو ما شابهها، بل أنه يقصد الشيوخ من تلاميذ الشيخ الرفاعي وهم في الكثر. وقوله "كل الشيوخ نجوم" في البيت الثاني يعود إلى الشيوخ في البيت الأول لذلك عرّفه بأل التعريف ليكون موعودا ذهنيا أو ذكريا، وفي الحقيقة إن الشيوخ من تلاميذ الشيخ وأقرانه في محيطه يقتبسون نور العلم من الشيخ الرفاعي. وفي البيت الثالث من هذا النص، افتخر الشاعر بأن ريادة الشيخ الرفاعي غير مقصورة على حارة أوكوبل تعاداه إلى حيث يوجد تلاميذ الشيخ في نيجيريا. إلا أن الشاعر قد يبتعد عن الصدق في مذهبه أنه لم يعط أحدا مثل زهد شيخ أبيكن، ومع ذلك نلتمس الشاعر عذرا أنه هو في حد معاملته مع العلماء لم يري مثل زهد الشيخ الرفاعي.

الشيخ الرفاعي مثال يحتذى به

أمن الشعراء أن الشيخ الرفاعي مثل أعلى يجب على العلماء اقتداء بآثاره، ولذلك نراهم يوصون خلفاءه أن يصيروا على منهجه وأن يتخلقوا بأخلاقه كما في قصيدة عبد الله أحمد حيث قال:

خلفاء زمرتنا كنتم لنا قبسا ** سيروا على منهج الشيخ بابا أبيكن
دوموا لنا قادة نعلوبكم أبدا ** بالله قوموا بأخلاق بابا أبيكن
إن فرنا بالحب منكم صرنا ذا كرم ** مادامحبكم حب بابا أبيكن^{١٤}

يؤمن هذا الشاعر، كما ظهر في البيت الأخير، أن من أحبه الشيخ الرفاعي يفوز بالمقام، وبالتالي يوصي الأبناء أن يخلصوا الحب لتلاميذ أبيهم كما أخلص لهم أبوهم.

ترقية بعض تلاميذ الشيخ الرفاعي علامة استجابة دعاءه وإرشاده

أمن الشعراء بأن الشيخ الرفاعي مستجاب الدعاء وأن نيل بعض تلاميذه الترقية في معملهم ووارتقاءهم إلى المناصب العالية في مجتمعهم من إثر استجابة دعاء شيخهم الذي يدعو الله دائما لتلاميذه بالبركة والتوفيق، نلمس ذلك في دالية عبد الله أحمد التي قالها

أبنائكم قادة الإسلام والعلماء ** وأنت أصلهم الأعلى بابا أبيكن
من بحركم يشرب الأيتام والضعفا ** ويرتوى الأغنياء من بيت أبيكن
عمت أياديكم البلدان والدول ** أفاد كلهم تفوى بابا أبيكن^{١٣}

فتسمية الشيخ الرفاعي بـشيخ الشيخ لفخر، ولم يترقى هذا الفخر إلى حد المبالغة
لأنه لم يأكّد ذلك بمثل "قاطبة" أو "بغير منازع" أو "جميعهم" أو ما شابهها، بل أنه يقصد
الشيخ من تلاميذ الشيخ الرفاعي وهم في الكثرة. وقوله "كل الشيخوخ نجوم" في البيت الثاني
يعود إلى الشيخ في البيت الأول لذلك عرفه بأل التعريف ليكون موعوداً ذهنياً أو ذكرياً، وفي
الحقيقة إن الشيخ من تلاميذ الشيخ وأقرانه في محيطه يقتبسون نور العلم من الشيخ
الرفاعي. وفي البيت الثالث من هذا النص، افتخر الشاعر بأن ريادة الشيخ الرفاعي غير
مقصورة على حارة ألو كوبل تعاداه إلى حيث يوجد تلاميذ الشيخ في نيجيريا. إلا أن الشاعر قد
يبتعد عن الصدق في مذهبه أنه لم يعط أحداً مثل زهد شيخ أبيكن، ومع ذلك نلتبس
الشاعر عذراً أنه هو في حد معاملته مع العلماء لم يري مثل زهد الشيخ الرفاعي.
الشيخ الرفاعي مثال يحتذى به

أمن الشعراء أن الشيخ الرفاعي مثل أعلى يجب على العلماء اقتداءً بآثاره، ولذلك
نراه بوصف خلفاءه أن يصيروا على منهجه وأن يتخلقوا بأخلاقه كما في قصيدة عبد الله
أحمد حيث قال:

خلفاءهم رمتنا كنتم لنا قيساً ** سيروا على منهج الشيخ بابا أبيكن
دوموا لنا قادة تعلوبكم أبداً ** بالله قوموا بأخلاق بابا أبيكن
إن شرباً بالحب منكم صرباً ذا كرم ** مادامحبكم حب بابا أبيكن^{١٤}

يؤمن هذا الشاعر، كما ظهر في البيت الأخير، أن من أحبه الشيخ الرفاعي يفوز بالمرام
وبالتالي بوصف الأبناء أن يخلصوا الحب لتلاميذ أبيهم كما أخلص لهم أبوهم.
ترقية بعض تلاميذ الشيخ الرفاعي علامة استجابة دعاءه وإرشاده

أمن الشعراء بأن الشيخ الرفاعي مستجاب الدعاء وأن نيل بعض تلاميذه الترقية في
معملهم ووارثاتهم إلى المناصب العالية في مجتمعهم من إثر استجابة دعاء شيخهم الذي
يدعو الله دائماً لتلاميذه بالبركة والتوفيق، نلمس ذلك في دالية عبد الله أحمد التي

بمناسبة حفلة التعميد التي أقامها مركز زمرة السعداء لخريجيه الذين حصلوا على درجة الأستاذية بالتاريخ: ١٠/١٨/٢٠١٨ م، يقول فيها:

قبشرى وشكرا لأساتذة النهى ** وذروة مجد ضمكم عند أحمد
هنيئاً لكم أنتم برافضة العلا ** تعبتم وفقتم بجلالة أحمد
علي وبرهام وموسى سلامنا ** لأمواج أنتم من فياضة أحمد
ودرجة أستاذية غير هين ** ولكن ربي قد أجاب لأحمد^{١٥}

ذهب الشاعر إلى أن هؤلاء الأساتذة نالوا مرتبة الأستاذية بالجدّ والمشقة ولأجل مكانة الشيخ الرفاعي الرفيع عند ربّه، كما في البيت الثاني، وفسر ذلك في البيت الرابع أن الحصول على درجة الأستاذية ليس بأمر يسير ولكن الله وفقهم في الحصول لدعاء شيخهم الذي استجاب الله له. وزاد الشاعر بيان ذلك عندما يهئ على محمد جامع أحد الفائزين بدرجة الأستاذية من تلاميذ الشيخ وقال في القصيدة نفسها:

شربنا شراباً طيباً عند أحمد ** فجاء نتاج الشرب أحلى بأحمد
أيا سيدي نجل لجامع مرشدي ** علي كفاني أنك خير قائد
لقد كرم الله علياً وزانه ** بخلق جميل ونصيحة أحمد
وسامك أستاذ العلوم تكراً ** لترقية علمية لدى أحمد
فدع عنك ما قال الحسود فعزكم ** كفى لحسود بكرامة أحمد
أيا سائلي سرّ علي ومرشدي ** فسرّ علي انقياد لأحمد
بروفيسور، لا تقلق، زرعت وقد أتى ** حصاد الزراع بالرفاعي أحمد

نفهم من هذه الأبيات أن علي محمد جامع خدم شيخه وأنقذ له كل الإنقياد فلذلك نال الترقية إلى منصب الأستاذية الذي يحسد عليه، وبفضل كرامة شيخه نجح من كيد الأعداء وإساءتهم فمن خدم خدم ومن انتهى بذوي سعادة يسعد.

رثاء الشيخ الرفاعي

يشتمل الرثاء على بكاء الميت وإظهار اللوعة على فقده، والإشادة بفضائل الميت النفسية ومنافقه،^{١٦} وذكر شئ من فلسفة الموت. لقد سبق أن ذكرنا أن الرثاء أغلب أغراض الشعر في القصائد التي عثرنا عليها حول شخصية الشيخ الرفاعي عند كتابة هذه المقالة، ولذلك سيكون

الكلام أطول فيه من غيره وبناء على مضامين قضائد الرثاء المعثورة عليها يكون النقاش على الندب والتأبين والتعزية والدعاء للشيخ.

أ- نذب الشيخ الرفاعي والنواح عليه

الندب، هو أن يعبر الشاعر عن مشاعره الحزينة تجاه من يرثيه، وهو النواح والبكاء على الميت بالعبارات المشجية، والألفاظ المحزنة التي تصدع القلوب القاسية، وتذيب العيون الجامدة، إذ يولول النائحون، والباكون، وبصيحون، ويعولون مسرفين في النحيب والنشيج وسكب الدموع^{١٧}

صور الشعراء شعورهم الحزينة وبكاء الناس عامة عند وفات الشيخ الرفاعي وكانت العاطفة حارة وصادقة. فهناك عبد الغني الاوين الكنتوي في مطلع قصيدته يقول:

سالت دموع عيون الناس من خبر ** بموت مرشدنا الشيخ قد سفر

أطفال لم يختفوا صوت نوائحهم ** كل الأكابر يبكي أن خفى القمر^{١٨}

صوّر أن الناس، صغارهم وكبارهم، يبكون عندما جاءهم نعي وفاة الشيخ الرفاعي لأنه عزيز عليهم. وشاهد يوسف عثمان على هذا حين يقول:

ويوم وفاة الشيخ أحمد ذي الندى ** رأيت دموع الناس تجري كوابل^{١٩}

وليس الناس وحدهم هم الباكون على الشيخ على حد قول عبد الله أحمد، بل العلم الذي يبته الشيخ كذلك يبكي:

ليس الكبار وحدهم يبكونكم ** حتى الصغار وكافة الضعفاء

خافت الأراذل واليتامى ملجأ ** والعلم يبكي ضيعة العلماء

لاسيما طلابك الأخيار قد ** تاهوا بموتك في غي العناء

نظروا إلى الأفاق لم يجدوا بها ** شيخاً يمثل ذاتك المعطاء

أبت الدهر بأن تجود بديلكم ** لهم وأفنوا فيك كل ثناء

قالوا لأنت الروح في أجسادهم ** لما مضيت رميتهم بفناء^{٢٠}

فاظهر التأسر من قبل طلاب الشيخ الرفاعي في هذه الأبيات واضح، لأنهم يشعرون أن فقدته قد أحدث ثلماً لا تساد، استعان الشاعر في تصوير ذلك بأخيلة رائعة تجعل القارئ أو السامع

منفعلًا به حيث شبه الشيخ بالروح وتلاميذه بالجسد وإذا ترك الروح الجسد فإنه يتعطل،
وجعل الفناء مجازًا للقبر.

وذكر الله إبراهيم في دوره يرى أن الإسلام بنفسه يحزن ويبكي على وفاة الشيخ حزنا
شديدا حتى كانت دموعه سيلانا مثل البحر، يقول في مطلع قصيدته:

أرى الإسلام في الدنيا حزينا ** تفيض دموعه تحكي عيوننا

على فقدان حبي في الأنام ** أنيسي كل يوم ليس دوننا

صرح إبراهيم الإمام الأغني أنا موت الأبرار، أمثال الشيخ الرفاعي، ينبر
وجدان الأديب المبدع، ويشغل أفكار المقربين إليه، ثم أظهر تخسره في فقد الذي
اعتبره بقية السلف الصالح والذي يتمسك بالسنة النبوية، يقول:

موت الكبار من ذوي الأبرار ** يدعو الأديب ببقظة الأفكار

أين البقايا طالب الآثار ** أولى لنا الإتياع بالأطوار

مات الإمام بقية الأسلاف ** كيف ارتواء قبضة المدرار

نرى الشاعر يستخدم ألفاظ التخرس لفقدان العزيز مثل الإستفهام "أين البقايا" و "مات
الإمام" و "كيف ارتواء قبضة" مما يوحي أن الشيخ شخصية فذة محبوب ومشرف.

ب- تأبين الشيخ الرفاعي وتعداد فضائله

ولنعرف أهمية الشيخ الرفاعي في حياة أفراد قومه وجماعتهم التي دفعت الشعراء إلى
التمنية المذكور بعضها أعلاه، بدأ الشعراء يعددون مناقب الشيخ وفضائله بقولذكر
الله إبراهيم السابوري أنه:

هو الجحجح في الأصفاذ غيث ** وكان لكل مخلوق معينا

وفي الإرشاد بالنفسير فرد ** وأضحى في التقى شيخا مكينا

كأن خطابه أرى مصفى ** وكان سكوته فكرا ثمينا

سقى من علمه كل البرايا ** إلى تحت التراب غدا دفيننا

وصف الشاعر الشيخ الرفاعي بسيد بين قومه وأنه كريم بجود كثيره وبريد بكلمة "الأصفاذ"
الصُّفْد أو الصُّفْد وجمعه الصفاذ بمعنى العطاء " وكان يساعد الناس بكثير، وهو صاحب

الوعظ والإرشاد، ومفسر القرآن الكريم، وكان تقياً ومفكراً إسلامياً، وعلامة استفاد القاصي والداني من علومه. وبهذا وذاك يحزن الشعراء لفقده ويتخسرون.
وبأسلوب المدح وجه عيسى إبراهيم أوملاي الخطاب إلى الشيخ الرفاعي تأبين له

قائلاً:

يا خادم الخلاء والفرقان ** ومجاهد في الدين والعرفان
يا نعم من يحي الغفول بوعظه ** في خلقه غنم الوري والجنان
فاق الوري بتذكرو تواضع ** وبحكمة يدعو البرى لجنان
أنت الذي أنقذتنا من غفلة ** وجهالة وفي مسلك الطفغان
أنت الذي قومتنا من زيفنا ** ومعلل ومحلل بجمان
أين الذي زكى القلوب لطائفاً ** بتصوف وبطاعة الديان
أين البديل لمن دعا لشرعة ** ومفكر ومفسر القرآن
أين الذي علم الحرام محرماً ** ومحللاً بأوامر الحنان
كم قرية ومدائن أحييتها ** بكتابنا وبسنة العدنان^{٢٥}

أضاف هذا الشاعر إلى ما سبق من صفات الشيخ الرفاعي أن عبقريته في التصوف وتركية النفس وتثقيف العقول ورد الناس من الغوايا إلى هدى الإسلام. وكان مستقيماً في أمور دينه ودنياه.

ت- تعزية أهل الشيخ الرفاعي وتلاميذه

لم تكثر التعزية في القصائد التي بين أيدينا في رثاء الشيخ الرفاعي، ولعل السبب في ذلك يرجع إلى أن التلاميذ الذين يقولون أكثر هذه القصائد يرون أنفسهم كأولاد الشيخ ومن أسرته ولذلك لا يروا ضرورة في تعزية أنفسهم، ولكن وجدنا أوملاي يذكر إخوانه على سبيل اصطبارهم قائلاً:

إن المنية للخلائق واجب ** قد مات من يحي الوري ببيان

ويُلَمَح عبد الله أحمد يعقوب إلى الفكرة نفسها بقوله:

نرجو بقاء دائماً في جنبنا ** نلقي حنينك يا أبا الأدباء

يا شيخ أحمد إني متيقن ** بوجودكم معنا من الأحياء

فهذا التصوير أن الشيخ حيّا بينهم يخفف الشاعر عن نفسه وقومه ألم المصيبة والفجعة التي أحدثهما وفاة شيخهم.

ث- الدعاء للشيخ وروحه

فمما يؤكد أن الشيخ الرفاعي إنسان طيّب وصالح هو أن جلّ الشاعر الذين رثوه اختتموا قصائدهم بالدعاء له ولأسرته وتلاميذه وبالصلاة على النبي الكريم. نكتفي فقط بما ختم به عبد الرزاق عبد الرحمن سليمان أَجَانَصِ قصيدته لضيق المقام، يقول:

يا زمرة السعداء ** قولي معي بالدوام

أرحم إلهي أبانا ** سمي خير الأنام

أدخله جنة عدن ** مع الشيوخ الكرام

سَلِّمْ على البرّ والآل ** والصحاب الكرام

طلب من اخوانه، تلاميذ مركز السعداء أن يتضرعوا معه إلى الله أن يرحم شيخهم أحمد الذي كان بمثابة والد لهم وأن يدخله وأمثاله من الشيوخ الكرام جنة النعيم الذي وعد عباده المتقين.

الخاتمة

لقد درسنا خلال السطور السابقة انطباعات الشعراء العربيين تجاه الشيخ أحمد الرفاعي، المعروف بشيخ أبكن، أو إمام كَوَكُورُوكُنْ، لكونه من الأفاضال الذين تثير شخصيتهم وجدان الشعراء ويدفعهم إلى قول الشعر، فوجدنا أنهم يروه إنساناً ذا أخلاق نبيلة، كان فيموكب الخالدين لأعماله الجليلة، وأنه مفخرة لقومه، ورأوا أنه مثلاً أعلى، وأنه صوفي جليل، وإمام عادل ورع، ومعلم ربّاني، ولذلك ندبوه كثيراً في شعرهم وناشدوا فضائله الجليلة ودعوا الله أن يرحمه وأن يديم دولته وأن يكثر في المسلمين من أمثاله.

وأدركنا أن الباحثين والدارسين لم يعاروا حياة هذا العَلَمِ وأعماله الإهتمام اللائق في أعمالهم فنَدَعُوهم إلى الإسهام البالغ في هذا الوادي المجهورة لصالح الجيل القادم.

الهوامش

- ١- علي محمد جامع: الشيخ أحمد الرفاعي حياته وإسهاماته في نشر الثقافة العربية والإسلامية في نيجيريا، الطبعة الثانية، اتحاد خريجي مركز زمرة السعداء، إيسالي ألوكو، إلورن، ١٤٣٤هـ - ٢٠١٣م، ص ٢٣
- ٢- المرجع نفسه، ص ٣١
- ٣- المرجع نفسه، ص ٤١
- ٤- المرجع نفسه، ص ٢٥
- ٥- المرجع نفسه، ص ٦٨-١٠٠
- ٦- المرجع نفسه، ص ٥٣
- ٧- المرجع نفسه، ص ١٠٢
- ٨- المرجع نفسه، ص ١١١
- ٩- المرجع نفسه، ص ١١٣
- ١٠- عيسى إبراهيم أومالاي: قصيدة تونبة قالها مدحا للشيخ الرفاعي أبيكن، مخطوطة تجد لدى آدم أحمد، إلي إليماشو، إلورن، بتاريخ ٢٠١٣/٦/٣٠م
- ١١- علي محمد جامع: المرجع السابق، ص ١١٦
- ١٢- المرجع نفسه، ص ١٥٦
- ١٣- عبد الله أحمد: قصيدة تونبة قالها توكا بشيخ أحمد الرفاعي بن عثمان أبيكن، بمناسبة حفلة الوليمة القرآنية المنعقدة بدار دعوة السعداء للتعليم العربي والإسلامي، غلادما، ضاحي المطار، إلورن، (غير مؤرخ)
- ١٤- المرجع نفسه
- ١٥- عبد الله أحمد (خادم السعداء): قصيدة تونبة تحميدية نظمها بمناسبة حفلة التحييد التي أقامها مركز زمرة السعداء، إيسالي ألوكو، إلورن، لتشريف بعض خريجي المركز الحاصلين على درجة الأستاذية، بتاريخ ٢٠١٨/١٠/١م
- ١٦- لطيف أونيريني إبراهيم: "الرثاء في شعر آدم عبد الله الإلوري" in JARS Journal of Arabic and Religious Studies, 15; pp. 74 – 92. Published by the Department of Religions University of Ilorin, Ilorin, Nigeria
- ١٧- مهدي المأمون بشرى وغيره: "الرثاء في الأدب العربي"، المجلة العلمية لجامعة الإمام المهدي، تصدر عن جامعة الإمام المهدي، سودان، العدد ٨، ٢٠١٦م، ص ٢٩٤
- ١٨- علي محمد جامع: المرجع السابق، ص ١١٥
- ١٩- المرجع نفسه، ص ١١٢
- ٢٠- المرجع نفسه، ص ١٥٦
- ٢١- المرجع نفسه، ص ١١٦
- ٢٢- المرجع نفسه، ص ١١٣
- ٢٣- المرجع نفسه، ص ١١٦
- ٢٤- موقع المعاني لكل رسم: "المعاني الجامع: الأصفاد" - <https://www.almaany.com/ar/dict/ar-%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B5%D9%81%D8%A7%D8%AF/ar/%D8%A7%D9%84%D8%A3%D8%B5%D9%81%D8%A7%D8%AF>
- ٢٥- عيسى إبراهيم أومالاي: المرجع السابق